

أثر وسائل التواصل الاجتماعي بأنواعها في حياة الفرد والمجتمع في زمن وباء كورونا

The impact of social media of all kinds on the life of the individual and society at the time of the spread of the Corona epidemic

د. نجلاء عبد السلام محمد نصير

nagla116@gmail.com

جامعة الإسكندرية - مصر

ملخص:

مما لاشك فيه أن الحدث الجلل الذي هز العالم بأسره لم يكن في الحسبان فوباء كورونا أو جائحة كورونا التي انتشرت كالنار في الهشيم من ووهان الصينية إلى إيطاليا ومن ثم تسربت للعالم بأسره ، كانت بمثابة الصدمة التي اختلفت حولها الأقاويل ونالت حظها من اللغط والشائعات مثلها مثل أي حدث يتحول لظاهرة على وسائل التواصل الاجتماعي فكثرت الأقاويل التي ساهمت في بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في التباعد الاجتماعي

ويهدف هذا البحث إلى:

- دراسة بعض الشائعات التي انتشرت عبر شبكات التواصل الاجتماعي
- أثر الجائحة في الإبداع الفكري والأدبي
- جهود المبدعين لإثراء الساحة الثقافية في زمن الجائحة
- دور وسائل التواصل الاجتماعي في خلق حلول بديلة لاستمرار حركة الحياة سواء في التعليم أو في الثقافة .

الكلمات المفتاحية: الإبداع الفكري والأدبي، وباء كورونا

Abstract:

There is no doubt that the major event that shook the whole world did not take into account the Corona epidemic or the Corona pandemic, which spread

like wildfire from Wuhan, China, to Italy and then leaked to the whole world. An event transforming into a phenomenon on social media, as there was a lot of gossip that directly or indirectly contributed to social distancing, and this research aims to:

- Study some of the rumors that have spread on social media
- The impact of the epidemic on intellectual and literary creativity
- The efforts of creative people to enrich the cultural scene in the era of the pandemic
- The role of social media in finding alternative solutions to preserve the progress of life, whether in education or culture.

Key words: intellectual ,literary creativity Corona epidemic

إن فاشية مرض فيروس كورونا (COVID-19) المندلعة حالياً والتي أبلغ عنها لأول مرة بمدينة ووهان الصينية يوم 31 كانون الأول/ ديسمبر 2019

وتعمل المنظمة عن كثب مع الخبراء العالميين والحكومات والشركاء للإسراع في توسيع نطاق المعارف العلمية عن هذا الفيروس الجديد، وتتبع خطى انتشاره ، وإسداء المشورة إلى البلدان والأفراد بشأن التدابير المتخذة لحماية الصحة والحيلولة دون انتشار هذه الفاشية.

وفي ظل انتشار الجائحة ازدحمت مواقع التواصل الاجتماعي بفيديوهات تشرح الأعراض وتقدم النصائح والتدابير الاحترازية للحد من انتشار عدوى الجائحة لكن هذه المعلومات لم تخل من الأخطاء الشائعة والتي رصدتها منظمة الصحة العالمية ومنها¹:

الحقيقة: الفيتامينات والمكملات المعدنية لا يمكنها أن تعالج كوفيد-19

تعد المغذيات الدقيقة مثل فيتامين دال وفيتامين جيم والزنك ضرورية لضمان الأداء الجيد للجهاز المناعي، وتلعب دوراً حيوياً في تعزيز الصحة والعافية التغذوية. ولا توجد حالياً أي إرشادات بشأن استخدام مكملات المغذيات الدقيقة كعلاج لكوفيد-19.

وتعكف المنظمة على تنسيق الجهود المبذولة لتطوير الأدوية لعلاج كوفيد-19 وتقييمها.

¹ <https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-public/myth-busters>

الحقيقة: تشير الدراسات إلى أن الهيدروكسي كلوروكوين ليس له فوائد سريرية في علاج كوفيد-19

خضع الهيدروكسي كلوروكوين أو الكلوروكين، وهما علاجان للملاريا والذئبة الحمامية والتهاب المفاصل الروماتويدي، للدراسة كعلاج محتمل لكوفيد-19. وتشير البيانات الحالية إلى أن هذين الدوائين لا يحدان من الوفيات بين مرضى المستشفيات المصابين بكوفيد-19، ولا يساعدان الأشخاص المصابين بالمرض المعتدل.*

ويُعد استعمال الهيدروكسي كلوروكينوالكلوروكين مأموناً في العموم للمرضى المصابين بالملاريا وأمراض المناعة الذاتية، ولكن استخدامهما في غير دواعي استعمالهما ودون إشراف طبي قد يسبب آثاراً جانبية خطيرة وينبغي تجنبه.

*يلزم إجراء بحوث أشد حسماً لتقييم مدى نفعهما في المرضى المصابين بالمرض الخفيف أو كعلاج وقائي قبل التعرض أو بعد التعرض للأشخاص المعرضين لكوفيد-19.

مرض كوفيد-19 ينتشر عن طريق القطرات التي يفرزها الجهاز التنفسي عندما يسعل الشخص المصاب بالعدوى أو يعطس أو يتكلم. وتنتقل العدوى إلى الأشخاص إذا لمسوا سطحاً ملوثاً ثم لمسوا بعد ذلك عينيهم أو فمهم أو أنفهم².

وكما أثرت الجائحة في حياتنا على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي طال أثرها الإبداع الفكري والأدبي فعلى صعيد الوسط الثقافي توقفت الفعاليات من ندوات ومؤتمرات وذلك التزاماً من وزارة الثقافة بالتباعد الاجتماعي للحد من تفشي العدوى ، ومن ثم جاء دور التقنية الرقمية التي أسهمت بإيجابية

في إثراء الوسط الثقافي في ظل الجائحة ففي مصر على سبيل المثال قامت وزارة الثقافة بمصر بتوجيه من الدكتورة :إيناس عبد الدايم بتنفيذ مبادرة الثقافة عن بعد فنشط الأدباء والشعراء والنقاد في بث أعمالهم عبر الانترنت بإشراف مراكز الإبداع وقصور الثقافة تحت لواء وزارة الثقافة وذلك لسد عجز الفجوة التي ساهمت في تضخمها الجائحة وللحق أقول عن تجربتي الشخصية أن هذه المبادرة قد أسهمت بشكل إيجابي في تحريك النشاط وإثراء الساحة الثقافية بالشعر ، فالرقمية كانت الحل البديل وستظل الحل البديل إلى أن تزول الجائحة

² <https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-public>

أما عن مستوى الإبداع في ظل الجائحة فقد شرفت بتحكيم عدة مسابقات تحت عنوان "الإبداع في ظل فيروس كورونا المستجد" فقد اتسمت القصص المشاركة في المسابقة سواء للقصة القصيرة أو القصة القصيرة جدا

- بالتخبط والقلق النفسي الذي ظهر جلياً في لغة المبدعين .

- تأرجحت الأعمال بين المباشرة والغموض

ومجمل القول إن الجائحة قد ظهر أثرها النفسي في الإبداع .

وقد نشرث في الجمهورية أون لاين قصة قصيرة بعنوان "الجائحة"³

ومهما يكن من أمر إنجائحة كورونا لم تكن في الحسبان ومما لاشك فيه أنها أربكت العالم بأسره وأصابته بالشلل في معظم مؤسساته ، وجعلت العالم كله يدرك قيمة البحث العلمي والأطباء .

ومن ثم ينبغي أن تخصص كل دول العالم الميزانية الأكبر للبحث العلمي وخاصة أننا إلى الآن لم نجد عقاراً لهذه الجائحة التي تجاوزت وفياتها في مختلف أرجاء العالم حازر المليون⁴ ، وفق بيانات جامعة هوبكنز الأمريكية، وسط تصاعد عدد الإصابات في عدد من البلدان، ومخاوف مما يُعتقد أنها موجة ثانية.

وفي ظل الجائحة والتباعد الاجتماعي كان لهيمنة وسائل التواصل الاجتماعي على حياة الفرد والمجتمع أهمية كبرى وقد لجأ كثير منا لوسائل التواصل الاجتماعي للاطمئنان على ذويهم وتبادل خبرات دول العالم في مكافحة الوباء .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : ما مستقبل الإبداع الأدبي في ظل جائحة كورونا ؟ أو ما هو شكل الإبداع ما بعد «كورونا»؟

3

<https://www.gomhuriaonline.com/%C2%A0%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%AD%D8%A9%20%C2%A0%20%D9%82%D8%B5%D8%A9%20%D9%82%D8%B5%D9%8A%D8%B1%D8%A9%20/718890.html>

4

<https://www.dw.com/ar/%D9%88%D9%81%D9%8A%D8%A7%D8%AA%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85-%D8%AA%D8%AA%D8%AE%D8%B7%D9%89-%D8%AD%D8%A7%D8%AC%D8%B2-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D9%8A%D9%88%D9%86/a-55087387>

سؤال لا يفرض نفسه على الأدب فقط ، وإنما يتعدى ذلك ليشمل كل مقومات الحياة في العالم : هل ستدخل الكتابة أفقا جديدا تتخطى من خلاله ما خلفته هذه الكارثة من عطب في العقل والوجدان الإنساني، وما هو شكلها وملاحمها؟ في هذا التحقيق آراء مجموعة من الكتاب الروائيين، وتصوراتهم لشكل الإبداع ما بعد كورونا:

– أحمد الخميسي مصير إنسانيٍّ موحّد:

"ارتبطت التغيرات الكبرى في المذاهب الأدبية والفنية بتحولات اجتماعية عميقة، مثل ظهور الرومانسية مع التحول المنزل من النظام الإقطاعي إلى مجتمع صناعي وصعود الطبقة الوسطى، ومثل الإعلان عن المدرسة الدادية كاحتجاج يائس وعدمي على الحرب العالمية الأولى، أما عن الأشكال الأدبية المستقرة مثل القصة والرواية فإنها عادة تتغير ببطء شديد للغاية، لهذا لا أتوقع أن يؤدي وباء كورونا إلى ظهور مذاهب

أدبية أو تحولات خاصة في أشكال الإبداع الأدبي والفني، لكن هذا الوباء، وفضاعة تفشيته بهذه القسوة وضرباته العمياء في كل اتجاه ، قد تستدعي أفكارا جديدة إلى مضمون العمل الإبداعي، وأظن أن فكرة المصير الإنساني الموحد ستكون على رأس القائمة، ذلك أننا للمرة الأولى نرى بسطوع سقوط قوة المال أمام الوباء، وسقوط قوة المناصب، ونرى أيضا للأسف عجز العلم وحيرته، وفي المقابل نشهد الحاصدة التي تقطف الرؤوس من دون تمييز بين أبيض وأسود، غني أو فقير. وأظن أن كل ذلك سي طرح بشدة على الإبداع قضية «وحدة المصير الإنساني»، وهي جملة قد لا تكون جديدة ، لكن صوتها كان خافتا ووجهها شاحبا، الآن يضع الوباء أمام أعيننا قضايا ملحة، أظنها ستحظى باهتمام المبدعين، مثل قضية أنه لا نجاة لا أحد بدون الآخرين، ولا نجاة للآخرين من دون كل فرد. ربما تكون تلك النعمة هي المعزوفة الأولى التي سنسمعها بتوزيع مختلف في كل مرة من عالم الإبداع، مع أمل ألا تصبح الهموم الإنسانية الجديدة مادة لأعمال تجارية شبه أدبية سريعة الإعداد. في كل الأحوال يبدو في أيامنا هذه كأن الأرض كلها تطلق تنهيدة واحدة، ولا بد أننا سننصت في الإبداع الحقيقي إلى هذه التنهيدة ونحس حرارتها بطرق مختلفة.

رأفت السويركي: إعادة تشكيل المشهد:

إذا كان السؤال حول شكل إبداع «ما بعد كورونا» يكتسب مشروعيته من تلك الهواجس المصطنعة التي تشكلها حالة «الإرهاب» المهيمنة إعلاميا من الجائحة؛ فإن العقل التفكيكي القارئ للصورة الراهنة يتوقف كثيراً عند مقصود هذه الحالة وقد تلبست الرداء العوامة.

تلك الحالة المهيمنة من الاهتمام بالجائحة تمثل انتقالا في الخطاب لا يعادها في المماثلة سوى خطاب «الإرهاب» من «الإرهاب» الذي تشكل عقب تدمير بُرجي التجارة بنيويورك. والقاسم المشترك بين حالتي «الإرهاب والإرهاب» هو أرقام ضحايا الجائحتين من القتلى والناجين.

إن تأمل الصورة الجديدة الخاصة بفيروس «كورونا»، والصورة القديمة بفيروس «الإرهاب» تضع في «المسكوت عنه» وجود فاعل غير بريء؛ لأنه الصانع بشراسة للفعليين؛ وهو بالتحديد النظام الرأسمالي الأمريكي المهيمن.

ولا يمكن هنا أن نتغافل عن تقرير «نيويورك تايمز» حول إغلاق مختبر «فورت ويتريك» لأبحاث الجراثيم والفيروسات بولاية «ميريلاند» التابع للقيادة الطبية للجيش الأمريكي بسبب مخاوف تتعلق بالسلامة؛ وهذا المختبر وسواه كان يتولى التجارب حول الفيروسات المصطنعة؛ ومنها الفيروس الأم لكل سلالة «فيروس كورونا» إن تعبير الإبداع هو اصطلاح نخبوي في الأساس وبدل على طبيعة الخطاب المحيط بالظواهر والذي تنتجه النخبة المثقفة. لذلك فهو فعل لاحق وتابع؛ ومن هنا يكتسب المشروعية؛ بشغف النخبة للتعبير عن «دراميات الواقع ومتخيلاته»، وهنا يكون السؤال حول شكل إبداع «ما بعد كورونا».

وهنا تكون التوقعات اللاحقة بتوظيف جائحة كوفيد - 19 «كورونا» لتكون موضوعاً لبعض الأعمال الروائية أو المسرحية المحدودة؛ غير أنها لن تصل لقيمة الإبداعات السالفة لكامو، وماركيز وسواهما. فالتصور الذي تفرضه تطورات الواقع هو تقليص مدى مساحة الدرامية المأساوية للموت بـ«كورونا» عقب التوصل السريع لعلاجاته؛ خاصة أنه يتخير كضحايا شرائح عمرية في الأساس هي في طريقها للموت الطبيعي بالشيخوخة؛ لكن يجري توظيفه اقتصادياً؛ وهنا هو مرتبط الفرس.

- جان دوست: الجوع أولاً.

في اعتقادي سيكون هناك تغيير بلا شك. فالجائحة لم تكن حدثاً عادياً، ولا وباء محصوراً في بقعة محددة ولزمن قصير. كل إنسان على وجه الأرض تأثر بشكل أو بآخر. وبما أن الأوبئة منابع هامة للإبداع فإن الأدب بشكل عام سيتأثر بالجائحة. ولا أبالغ إذا قلت إن المرحلة التالية من الأدب، ولمدة عقود قادمة ستكون مرحلة الخوض في أسباب الجائحة، تأثيراتها، خفاياها. كثيرون من الروائيين والشعراء وكتاب القصة والمبدعين بشكل عام سيتناولون الموضوع لكن كلٌّ من زاويته الخاصة. في الغرب، وفي مجال السينما خاصة، أنا على يقين أن السمة التجارية ستكون طاغية في المشهد السينمائي الغربي كالعادة.

- منى ماهر: قنوات جديدة.

الكورونا ضيف ثقل حقاً، لكنه أعاد تشكيل حياتنا رغم رفضنا استقبله، هذا الفيروس الضعيف نجح في اختراق أعنى الحصون، نجح في اختراق الدوائر المحيطة بنا والتي كنا نعتقد أنها توفر لنا الحماية، كما منحنا وقتاً للعزلة مع أنفسنا، وقتاً لإعادة حساباتنا، تغير الكثير من معتقداتنا وعاداتنا، فلقد اكتشفنا أننا⁵ أضعف بكثير مما

⁵ الموقع السابق.

نظن، وأنا لسنا بالقوة التي خدعنا بها أنفسنا، عندما تتغير الأفكار، تبدأ رحلة البحث عن قنوات جديدة تناسب الأفكار، تتكيف رؤيتنا من خلالها للأشياء، فنرى للإبداع بفضل ذلك زوايا فهم جديدة لم نعتدها من قبل، فمن كان لا يؤمن بالحب، قد يرى صار يرى فيه الخلاص مما يلاقي، ومن كان لا يؤمن بسحر الوطن سيجد في الوطن الملاذ والسكن سيتغير الكثير، وستلوح في الأفق بدايات جديدة، ونهايات غير متوقعة، الجمال في حياتنا سيغير محل إقامته، الزحام الذي كان يؤنسنا قد يصبح مصدر إزعاج وخوف، والوحدة قد تصبح هي الأمان، سنعيد قراءة البشر، ونعيد ترتيب الأصدقاء على أرفف حياتنا، من كان يحتل الرفوف الأولى، قد يصبح في الرفوف الأخيرة، وقد يغادر نهائياً... إبداع ما بعد الكورونا يستحق الاهتمام، فأنا أعتقد أن القراءة ستحصد المزيد من الاهتمام، وأعتقد أن ذلك سيعيد تقييم العديد من الأعمال والعديد من الكتاب، ستظهر نجوم وستختفي نجوم. الأدب الصادق والحقيقي هو ما سيبقى، ستبقى الكتابات التي تلمس القلوب، الكتابات التي تقترب من روحك دون أن تجرحها أو تخدعها، الصدق الفني سيصبح معيار النجاح. الكورونا أصابنا بالخوف، ثم بدأ يحررنا منه تدريجياً، هذا الفيروس الصغير اقتحم أرواحنا ليخبرنا أن هناك الكثير من الأشياء التي كنا لا نراها رغم أنها كانت تستحق الاهتمام، سنبحث عن هذه الأشياء وسنعيد ترتيب حياتنا⁶.

ووفقاً لما ورد بجريدة الصباح فإن الآراء قد تفاوتت في هذا الأمر

- البصرة من وجهة نظر صفاء ذياب:

بعد أن صدرت أعمال كثيرة عراقياً وعربياً تناولت جائحة كورونا اجتماعياً وإنسانياً، وهناك أعمال تعد في الوقت الحالي، فضلاً عن محاولات الكثير من الأدباء لتدوين يومياتهم عن الحجر وما فعلوه خلال هذه الأشهر.. تكونت لدى الكثير من النقاد تساؤلات عدة عما ما بعد كورونا.

وربما بدأ الحديث الآن عن أدب ما بعد الجائحة، إذ بدأ الحديث بصوت عالٍ عن هذا الأدب، وهل سيختلف عما عرفه تاريخ الأدب منذ قرون.. وكيف سنقرأ ملامح هذا الأدب؟ وما الذي نستشرفه في خصائصه؟

أسئلة كثيرة ستزداد يوماً بعد يوم كلما طالت هذه الأزمة، وأسئلة ستنبثق عما سنراه في الأيام المقبلة..

رسول كورونا:

يرى علي داخل فرج أن الحديث عن أدب ما بعد كورونا الذي يُثار اليوم متزامناً مع ما يُداول على صفحات التواصل الاجتماعي من صور لأغلفة أعمال أدبية وروايات يُزعم أنها كُتبت في أيام الجائحة بحسب ما يُشير أحد العناوين - متعكراً على عنوان رائعة ماركيز - (الحب في زمن الكورونا)، هذا الحديث قد يبدو - لأول

⁶ <https://aawsat.com/home/article/2320961/%D8%A3%D8%AF%D8%A8-%D9%85%D8%A7-%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%C2%AB%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7C2%BB>

وهلة- نوعاً من المبالغة أو الترف الفكري، فلسنا نعلم حتى الآن كل شيء عن جائحة كورونا، وكيف ستنتهي؟ ومتى؟ وهذا ما يجعل التنبؤ بما بعد الجائحة أمراً ليس باليسير. ولو نظرنا- من جهة ثانية- في تداعيات جائحة كورونا وأثرها الكبير في مختلف جوانب الحياة، وفي مقدّماتها الجانبين الاجتماعي والاقتصادي، فضلاً عن الصحي، فإننا لا نستبعد أبداً أثراً مماثلاً في الأدب بالضرورة، فالحديث الذي يثار بقوة اليوم عن عالم ما بعد كورونا اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، لا بدّ أن يرافقه حديث عن عالم ما بعد كورونا المغاير أدبياً، فما هي ملامح هذا الأدب؟ وما الذي يمكن أن نستشفه من خصائصه؟ لا أظن أن الإجابة عن السؤالين السابقين سهلة أو متاحة على النحو المرضي، ولكننا قد نستطيع الإشارة إلى ملامح تمثل استجابة أو ردّة فعل إبداعية للشعور بالعجز والضعف وسقوط وهم الإنسان القوي والحضارة المنيعة بعد أن أجبر هذا الفيروس العالم على غلق كل شيء تقريباً، وأصبحت شوارع أكبر المدن، ولأوّل مرة في التاريخ، خاوية من سكّانها الذين فُرض عليهم البقاء محبوسين في منازلهم، وهم يشعرون بأن كورونا رسول الموت الذي قد يزورهم في أية لحظة.

ويوضّح فرج قائلا : لعلّ من الملامح أو الخصائص التي قد نستشرفها في أدب ما بعد كورونا، أنه أدب عُزلة واشتجار مع الذات من جهة، ومع زيف العالم والحضارة الذي كشفته الجائحة من جهة ثانية، فالعزلة القاسية التي عاشها ويعيشها الأديب في بيته قد تكون هي الكمامة التي تبرز منها ملامح الأدب الجديد بعد انتهاء الجائحة .

- الخسارات المُنحَحة:

وبحسب رأي عمار المسعودي، فإن وباء كورونا ما هو إلّا فسحة من سكون تداخلها مخاوف تشبه إلى حدود كثيرة بداية الحرب، يعني حينما تخشى من لمس عناصر الكون، فكيف سيكون وجودك بينما الذات الإبداعية ذات متحيّسة ترنو بنظرها لامتلاك العالم أو التحكم بالكون؛ وذلك لاعتمادها منظور الحداثة أو حتى ما بعده، وذلك حينما وقع العالم بفعل تغييرات اقتصادية أو قيمية بعد نشوء الدولة بالرغم من فجوات اكتمال معناها إلّا أنّها نقلت ساحة العملية الإبداعية من التغيّي بالآخر إلى الاقتراب للذات المبدعة وكيف تضع لنفسها أهدافاً أقل ما يقال عنها إنّها تحاول إدارة الكون وتفسيره وتغييره وليس باعتماد وصفه الثابت. ما يهمنا هنا هو أن ندخل من نافذة كورونا، لنقرّر أنّ الأدب بعدّه تعبيراً حرّاً عمّا يقلق الوجود وعمّا يُذهب عن الوجود الإبداعي أمنه وتقواه.

ثمّ يضيف : الجوائخ هي الخسارات المُنحَحة التي تصيينا، بعدنا وجوداتٍ تقع إبداعياً تحت تأثير الخوف والجزع والقلق، برغم ما أوّمن به من أن الإبداع يقع بعداً مختمراً بعيداً عن الأحداث، إلّا أنّي لا أخفي وجلي من جوائخ تمثل معادلاتٍ لمخاوف تتصل حتى بتفصيلات اللغة الشفّرة وهي تحلّد ما يتسيّد من رهبةٍ ومن خوفٍ ومن قلقٍ تتمثّل في مجموعة إسنادات لغوية تميل لعبور المخاوف إلّا أنّها متضمنة بشكلٍ مجدول في جدائل الابداعات

وهي تحاول في نماذجها الأعلى إخفاء كل ذلك... هذه اللائحة من المخاوف تهديد حقيقي، لذا على الذات الشاعرة ألا تستكين أو أن تكتفي بالسطح الإعلاني دونما تمثيلات عناصرية تضع الخلود نصباً لعينيها بدلاً من الوقوف إعلانياً حول كل ذلك .

مهام جديدة:

ويبين الشاعر عباس السلامي أنه لا شك في أن العالم بعد كورونا سيختلف بالتأكيد، وإنّ تداعيات ما حصل لن يكون الأدب في منأى عنها! وستبرز أمام الكتّاب تحديات كبيرة ومفصلية تتمثل في كيفية التعامل مع عالم انهارت فيه الثنائيات والتكتلات وان رؤى الكتّاب وأفكارهم الجديدة ستركز في الأساس على كيفية درء الخطر، نتيجة تنامي السطوة وممارسة العنف كأساليب ردّ اكتسبتها الأنظمة بتعاملها لدرء خطر العدو الخفي، ممارسات ربما تماثل في فعلها وحدتها ما كانت تفعله الأنظمة الشمولية، على اعتبار أنّ القانون جاز لها وأعطى لها التفويض الكامل بحجر الناس بأية طريقة حتى لو كانت عن طريق القوة، وهذا باعتقادي سيولد علاقة عدم ثقة ما بين الكاتب والسلطة، فالسلطة لا تريد من الكاتب كشف وفضح ما حصل، فالأساليب السيئة التي تعاملت بها بلدان في أوروبا مثلاً ضد شرائح في المجتمع ككبار السن، وفكرة التخلص منهم، ستزعزع في نظر الكاتب ومخيلته صورة المجتمع المتكافل المدني المتطور، وستقلص رغبة الكاتب بالامتداد بأدبه خارج حدود وطنه، وستبرز مهام جديدة، كيف سيتعامل الكتّاب مع تلك المهام كونها غير مسبقة هذا ما سيظهر بالتأكيد في أدب ما بعد كورونا؟

- أدب الأوبئة:

لا يعتقد الشاعر أسعد الجبوري بأن للأصوات العالية حقاً باختراع نظرية الأدب الكورونوي. لقد واجه العالم على هذه الأرض أوبئة وحروباً هائلة، إلا أنه لم يُقسم الآداب والفنون إلى فرق زمنية أو مراحل حاسمة في التاريخ إلا بنسب محدودة تخص الكتّاب والفنانين كما فعل ذلك بعد الحربين العالميتين. انقلاب صور الآداب والفنون، سيبقى محدود التأثيرات على الفنانين والمؤلفين، وهم لا يشكّلون رقماً مفزَعاً وضخماً قياسياً لناس الشعوب المليونية حول العالم.. من هنا، فإن آثار العزلة على الشعراء والأدباء والفنانين لن تؤدي إلى تحولات جوهرية، لأن غالبية أهل الأدب العظمى كانت تعيش تلك العزلة وتمارس الكتابة تحت ظلال الانعزال من دون مخاوف حقيقية من الأمراض ولا من بعض الانفجارات التي حدثت في بعض المفاعلات النووية.

ويضيف الجبوري: أدب الأوبئة مستمر منذ زمن طويل. ألا يُعدّ قمع الحريات والاعتقالات السياسية والتجويع والحظر والعقوبات الاقتصادية والفساد وغزوات الظلاميين من الأوبئة المرعبة مثلاً؟ إن نظاماً أدبياً جديداً، لا تكتمل ملامحه برمشة عين في كل الأحوال، لكن عندما تصل السلحفاة إلى الجبل، سنتحدث عن أدب الأوبئة بقلق جدّي أكثر.

فضلاً عن ذلك فإن العزلة الاختيارية التي فرضتها الجائحة جعلت الأدباء والشعراء يلحقون في سماء الخيال ويعيدون حساباتهم ، ففتحت لهم العزلة الاختيارية مجاًلاً واسعاً للقراءة والإطلاع فضلاً عن ذلك "العزلة المفروضة قد تحرّض أيضاً على تفرّغ شحنات الذات العميقة بمُتضاداتها أدبياً وشعرياً من خلال الوعي والحقل اللاشعوريّ معاً، وتُخضّض على اللجوء إلى عالم الأدب الموازي للواقع، على اعتباره بديلاً مُتصوّراً مؤقتاً أو واحةً يُسهمان في تحقيق التوازن النفسي وفي جعل الحياة مرحلياً أجمل أو على الأقل مُحتَملة ومُستساغة أكثر .

هذا ما يتبدّى من زاوية سايكولوجيا الإبداع بصورة عامة، إضافةً إلى عامل هامّ لا يمكن إغفاله يتمثّل بإستنارات العقل من خلال تَكشُّف المعاني الكُبرى وتلاؤُ الأسئلة الوجودية الملحّة والرؤية عند المبدعين .

أمّا بشكلٍ ملموس، فيتحدّث **للميادين الثقافية** عن تجربته الشخصية ونظّرتَه للعزلة القسرية كلّ من الشاعر اللبناني نعيم تلحوق والشاعر السوري سامر محمد إسماعيل والشاعر المصري عبداللهالسمطي والقاصّ والكاتب السعودي عبد الجليل الحافظ .

يرى تلحوق أنّ كورونا ليست حَجْراً جسدياً، بل "تُمثّل حَجْراً ذهنيّاً ونفسياً لأمراضٍ فينا بتحنا، وقد بدأت تتكشّف، إنه دور الكشف لكل ما هو مُزَيّف من حقائق وإرادات وعلاقات ."

يلتفت تلحوق إلى التاريخ فيقول إنّ سقراط حين كان في مَحْجَرِه- السجن أفهَمَنا أنّ للحرية باباً ثالثاً غير الجُدران والنُّكران. "إنه يأتي من الداخل- السمّ. هو ذهب ليُرشدنا إلى الحقيقة من أجل الآخرين" على حدّ تعبيره، موضحاً أنّ جائحة "كورونا" جاءت لتكشف خوف أنفسنا على أنفسنا قبل كل شيء من دون اعتراف وإدراك للآخر الذي هو فينا .

الشاعر اللبناني مرتاحٌ مع نفسه لأنه بدّد خوفه بالذهاب إلى الفكر، إلى المتخيّل الآخر الذي يبني فيه نشاطه الذهني، مُضيفاً "لعلّ "كورونا" درسٌ لنا، كي نوقِظ مُخيّلتنا ونرسم أفكارنا على قياس المعنى الذي وُجدنا لأجله، لنقهر الخوف والمرض من قلوبنا ونفوسنا وعقولنا."

من جهته، يقول الشاعر والكاتب السوري سامر محمّد إسماعيل إنّ الحَجْر لم يزدّه إلّا غضباً، لا سيما أنّ الوقت ليس التلُفت إلى الساعة ولا غياب الشمس أو شروقها، ليس الليل والنهار، إنّما هو العالم المتخيّل لكلّ منا. الحَجْر يزيد من ذبول الزمن حيث لا يرى سوى ساعات ذابِلة ذائبة كما في لوحة سلفادور دالي.

يعتقد مؤلّف ديوان "أطلس لأسمائك الحُسنى" أنّه صار لزماً على الكتابة أن تترنّح بفعل مخاوف الموت. "العالم سُجِنَ في المنازل والشاعر أيضاً يدور في هذا المنحى التراجيدي في ظلّ هذه العزلة القسرية"، كما يقول **للميادين الثقافية** .ويُضيف إن "القصيدة تعاني من هذه العزلة". النصّ الذي يطمح إليه هو نصٌّ يحتاج إلى الحياة والضوء. البقاء في المنازل نوعٌ من الهروب.

لقد حاول الشاعر سامر محمد إسماعيل أن يتجاوز طريقة التفكير هذه نحو كتابة مسرحية جديدة سوف يقوم بإخراجها لصالح المسرح القومي في دمشق. بموازاة ما يحدث هناك جانبٌ مثمرٌ على الصعيد الشعريّ. على الرغم من الألم المتأثي عن تجربة الحجر، فإنّ للتجربة أبعاداً جديدة يحتاجها الإنسان، كما يقول الشاعر والناقد المصري عبداللهالسمطي في تصريحٍ للميادين الثقافية، مؤكداً أنّ الإيجابية تكمن في مواجهة الإنسان لمراياه وقذف أقنعتة بعيداً كي يرى أكثر.

- يتبدّى التمتع الأدبيّ عنده حالياً في إعادة ترتيبه بعض دواوينه الشعرية التي لم تُنشر بعد، فيما تتجلى غزارته قراءةً وكتابةً، ومن خلال تفعيل قناته المهملة في "يوتيوب" منذ 10 سنوات حيث قام بتسجيل 95 حلقة من الشعر العربي القديم والمعاصر كمختارات الشاعر والناقد المصري عبد الله السمطي .

في الوقت عينه، لم يغفل السمطي متابعة أخبار فيروس "كورونا" في العالم مع ما يرافقها من شعورٍ بالحزن العميق في نفسه من جرّاء ما أصاب الشعوب. يبدو مؤلف ديوان "سرير الخطاب" نشيطاً في بناء المعرفة الأدبية والنقدية التفاعلية عبر مواقع التواصل الاجتماعي في فترة الحجر.

من جانبه، يؤكّد الأديب والقاصّ السعودي عبد الجليل الحافظ للميادين الثقافية أنّ "الجائحة أعادت إلينا صوابنا وجعلتنا نفكر بطريقةٍ أخرى، منها أن تكون الأسرة في الداخل في المقام الأوّل". يزرع مؤلف المجموعة القصصية "عتمة" حبّ القراءة في عقول ونفوس أولاده، وعلى الصعيد الشخصي ألزم نفسه برفع عدد الكتب التي يقرأها في الأسبوع الواحد، وبإنجاز بعض المشاريع الكتابية المؤجلة لأسبابٍ عديدة .

- الأدباء والشعراء في ظلّ عزلة كورونا.

الحراك الثقافي لم يتوقّف واللقاءات والاجتماعات الثقافية كذلك، وإنّ لم تكن تُعقد في المقاهي أو الأماكن الخارجية. يقول عبد الجليل الحافظ إنّ "اللقاء أصبح من خلال المنصات الاجتماعية الافتراضية على الإنترنت من خلال برامج (Zoom) وسواها من البرامج".

ويضيف: "أصبحت هناك لقاءات ثقافية أسبوعية. إلزمنا بأن نلتقي لمدة ساعة أسبوعياً نناقش فيها حول كتاب مُعيّن أو فكرة مُعيّنة ونقرأ بعض النصوص الإبداعية. نعم لقد قلّ اللقاء الجسدي لكنّ اللقاءات الفكرية ما زالت مُتصلة. هذه الجائحة أعطتنا القدرة على معرفة أنّ مشاكلنا الكبرى الإنسانية ليست صعبة الحل بل إنّ حلّها بسيطٌ جداً."

- الأديب والقاصّ السعودي عبد الجليل الحافظ:

في هذا الإطار يعقّب الأديب السعودي مُتسائلاً: "مَن كان يُصدّق أنّ التلوّث البيئي سينخفض في فترة بسيطة ليصبح الهواء صالحاً للتنفّس، ومَن قال إنّ طبقة الأوزون ستتعافى؟"⁷.

يتوقّع عبد الجليل الحافظ في الأيام القادمة ظهور أدب ما بعد الأزمة الإنسانية المَتمحور حول هذا الوباء بطريقةٍ مختلفة عمّا صدر من أدبٍ خلال الجوائح والأوبئة في الفترات الماضية، حيث لم يكن عند المبدع مدى الإدراك حول إصابة العالم ككلّ. أما الآن، كما يرى الحافظ، فإن الأدب أصبح شموليّ المعرفة وبالتأليفان الطريقة التي سيتمّ من خلالها تناول هذه الكارثة عالمياً ستكون مختلفة⁸.

- الأوبئة والأدب:

وكما كانت الأوبئة مادة للمؤرخين فإنها وفرت كذلك مادة خصبة للأدباء عربياً وعالمياً.

في رواية سيرته الذاتية "الأيام"، يعرض عميد الأدب العربي طه حسين لانتشار وباء الكوليرا في قريته مطلع القرن العشرين، ويصف لوعة أهل بيته بموت أخيه الأوسط طالب الطب الشاب بالوباء، الذي وكما نقرأ في كتاب "الأيام" كان قد "هبط إلى مصر ففتك بأهلها فتكاً ذريعاً ودمر مدناً وقرى ومحا أسراً كاملة".

الوباء الذي وصل المنطقة العربية في موجات عدة بدءاً من القرن التاسع عشر، عرف طريقه إلى الأدب العربي وتحديدًا الشعر، الذي صور حالة الملح والرعب التي اجتاحت بلداناً بأكملها، حصدت فيها الكوليرا أرواح الكثيرين.

نجد هذا مثلاً في قصيدة نازك الملائكة تحت عنوان "الكوليرا" التي تتناول انتشار الوباء في مصر في العام 1947 كما في قصيدة للأديب والشاعر لويس صابونجي تتحدث عن انتشار الوباء في بلاد الشام ووصوله إلى الجزيرة العربية نهايات القرن التاسع عشر.

وليس بعيداً عن العالم العربي، تتناول رواية "القلعة البيضاء" للأديب التركي أورهان باموك، انتشار الكوليرا في إسطنبول العثمانية وتراجع أعداد من هلكوا بالوباء بعد تطبيق إجراءات الحجر الصحي في البلاد.

⁷ <https://aawsat.com/home/article/2320961/%D8%A3%D8%AF%D8%A8-%D9%85%D8%A7-%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%C2%AB%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7%C2%BB>

⁸ المرجع السابق: ص ن.

قتلت الكوليرا الملايين من البشر عبر العالم ليرتبط اسمها بالموت لكنها في الأدب وجدت طريقها لتقتن بالحلب أيضا. ففي راعته "الحب في زمن الكوليرا" يجعل الأديب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز من سفينة ترفع زوراً علم الوباء الأصفر ملاذاً للحبيبين فلورينتينو وفيرمينا.

ويبدو الحديث عن انتشار الكوليرا في المدينة الخيالية التي تدور فيها أحداث الرواية إشارة إلى تفشي الوباء في أمريكا اللاتينية في نهايات القرن التاسع عشر. أما في أيقونة الواقعية السحرية "مئة عام من العزلة"، فإن ماركيز يضرب أبعد في الخيال ليطلق وباء الأرق والنسيان على سكان قرية ماكوندو المنعزلة عن العالم.

الطاعون الذي عرفته البشرية مرات عديدة كان محورا لأعمال أدبية غربية عدة من بينها، رواية "محنة الطاعون" للكاتب الإنجليزي دانيال ديفو والتي تصور انتشار الطاعون في لندن في القرن السابع عشر، فضلا عن روايات استخدمت الوباء القاتل ضمن إطار الخيال العلمي والديستوبيا كما في رواية ماري شيلي "الرجل الأخير" ورواية الأمريكي جيم غريس "بيت الآفات" والتي تصور انهيار المجتمع الأمريكي الذي يضربه وباء الطاعون في زمن مستقبلي متخيل.

عند الحديث عن استخدام الأوبئة في الأدب الديستوبي عريبا يمكن استذكار رواية "عطارد" للمصري محمد ربيع، وإن كان انتشار الكوليرا وأنفلونزا الحمير الذي تتحدث عنه الرواية ما هو إلا جزء بسيط من الموت الذي يحصد سكان القاهرة في عالم الرواية الكابوسي المرعب.

وعندما يُذكر الرعب وأدبه، يُذكر "العزّاب" أحمد خالد توفيق والذي تضمنت عدد من الكتب ضمن سلسلته الشهيرة "سفاري" حديثاً عن الأوبئة، ما كان حقيقياً منها وما كان متخيلاً. نتحدث هنا عن كتب مثل "عن الطيور نحكي"، و "الموت الأصفر"، فضلاً عن "الوباء" الذي تصاب شخصياته بمرض يجعل عيونها تنزف دماً.

في رواية البرتغالي خوسيه ساراماغو "العمى"، يحصد وباء غامضٌ أبصار الناس، ما عدا واحدة، مظهراً أفضل وأساء ما فيهم. يستخدم العمى البصري في الرواية كدلالة رمزية على عمى الفكر، وهشاشة الأخلاق والمبادئ الإنسانية في أوقات العوز.

استخدام الرمزية كان أيضاً الأسلوب الذي يرى كثير من النقاد أن الروائي الفرنسي ألبر كامو اعتمده في روايته "الطاعون" والتي تتخيل تفشي الطاعون في مدينة وهران الجزائرية في أربعينيات القرن الماضي.

وبينما تشكل وهران مسرح الأحداث إلا أن الرواية اعتبرت سجلاً لأجواء مدينة باريس تحت الاحتلال وقت خضوعها لألمانيا النازية وحملت رسائل أعمق تدين الفاشية وتطرح موضوعات إنسانية عابرة للأزمنة والأماكن.

يتضح هذا في خاتمة الرواية حيث نقرأ: "بكتيريا الطاعون لا تموت ولا تزول أبداً، وأنها يمكن أن تبقى عشرات السنين نائمة في قطع الأثاث والغسيل، تنتظر بطول أناة في الغرف والأقبية وصناديق الأمتعة والمناديل والورق، وقد يجيء يوم، لبلية البشر وعبرتهم، يوقظ فيه الطاعون جردانه ويرسلهم كي يموتوا في مدينة هائلة".

لا يمكن الحديث عن الأوبئة التي عرفها العالم من دون الحديث عن الأنفلونزا الإسبانية التي انتشرت بين عامي 1918 و1920 متربعة كواحدة من أكثر الأمراض فتكاً بالبشر.

ونجد تصويراً رائعاً للأحداث التي صاحبت انتشار هذه الأنفلونزا في رواية الصحفية والكاتبة الأمريكية كاثرين آن بورتر "حصان شاحب فارس شاحب".

أما عربياً فنجد مثلاً في رواية اللبناني ربيع جابر "أميركا" صوراً قاسيةً لهذا الوباء الذي عايشه العرب المهاجرون إلى أمريكا حيث تمرّ يوماً سيارات تنادي على الناس للإلقاء جثث موتاهم من الشبايك بعد تفشي الموت بالأنفلونزا إلى درجة يصعب معها دفن كل ميت في قبر خاص⁹.

وفي مناسبة أخرى يرى سعيد بوطاجين في مقاله النقدي "مرايا عاكسة":

أحالتني رسالة الكاتبة الإيطالية فرانثيسكاميلاندري (1964) التي تناولت موضوع جائحة كورونا في مارس 2020، إلى الأوبئة التي حصلت عبر التاريخ البشري، وإلى مختلف النصوص التي تناولتها، سواء بالعودة إلى الواقع الموضوعي، أو باستباق الأحداث بمهارة الرائي. كانت رسالة هذه الروائية موجعة، ولا بدّ أنها قدمت درساً مهماً للكتاب والمثقفين بالنظر إلى جرأتها وقوتها، وذاك ما نحتاج إليه في هذه السياقات. المجتمعات ليست بحاجة إلى فن وحسب، إنها بحاجة إلى مواقف إنسانية تخلص العالم من جنون القادة والأثرياء، وبحاجة أيضاً إلى تقويض كثير من قناعاتها وأوهامها الموروثة، أو تلك التي صنعتها لنفسها. أما الكتاب والشعراء والمثقفون فجزء من هذا الوهم الكبير لأنهم تخلوا عن رسالتهم الدنيوية ليصطفوا إلى جانب الملوك، كما لو أنهم امتداد لهذه الفئة في جهة ما، أو عبارة عن كائنات من الورق لا تعيش سوى في الكتب مثل القوارض، كما ورد في زوربا الإغريقي، دون أن تنتبه إلى ما يحتاج إليه الإنسان في أرض استولت عليها رؤوس الأموال ليصبح الشرّ موجهاً للقيم، وللثقافة.

ظهرت الأوبئة إذن في فجر الخلائق، غير أنها لم تدوّن دائماً لاعتبارات واضحة، ومع ذلك قد نجدها متواترة في عدة كتب سماوية، وفي عدة مدونات لاحقة، تاريخية وأدبية، مع تباين كبير في ضبط أسبابها، علمياً

⁹ <https://www.bbc.com/arabic/art-and-culture-52255283>

• المقال كان موضوع حلقة في برنامج "عالم الكتب" بعنوان "الأوبئة في التاريخ والأدب"

ودينيا، وفي تأثيراتها على البنى الاجتماعية والاقتصادية، وعلى النسيج الاجتماعي العام. لقد كان الطاعون مثلاً، وفق ما ذكره الباحث أحمد العدوي، أحد أسباب سقوط الدولة الأموية، وذلك عندما قرر العباسيون إعلان ثورتهم بين طاعونين كبيرين ضربا الشام والعراق في منتصف القرن الثامن ميلادي كان ذلك القرن مميزاً، إذ شهد ظهور الوباء عشرين مرة، ما أدّى إلى تفكك كثير من العناصر التي كانت متكاً للناس، بما في ذلك انخيار الجانب الأخلاقي ليظهر الإنسان على حقيقته البدائية. كما عرف المغرب طاعونا مدمراً في عهد السلطان مولاي سليمان الذي حكم في الفترة الممتدة ما بين سنة 1792 و 1822، وقد خلف آلاف الضحايا.

وقبل ذلك ظهر الطاعون الأنطوني من سنة 165 م إلى سنة 180م، وتذهب الدراسات التاريخية إلى أنه كان يخلف بمعدل 60 ألف ضحية شهرياً، مع اختلاف واضح في فهمه وقراءته، واقعياً وعقائدياً. لقد ورد في العهد القديم، كأحد النصوص التي قرأت هذه الأوبئة بطريقتها، وتحديدًا في نبوءات إرميا وأشعيا أنه عقاب رباني للبشر الذين خالفوا كلام الخالق ووصاياه، وذاك ما يمكن استنتاجه من قوله: "ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص على أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم، تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدركك، ملعونا تكون في المدينة، وملعوناً تكون في الحقل، ملعونة تكون سلتك ومعجنتك، ملعونة تكون ثمة بطنك وأرضك، نتاج بقرك وإناث غنمك، ملعونا تكون في دخولك، وملعوناً تكون في خروجك."

في حين اختلف المسلمون في تسويغ أسباب العلة التي ضربت عدة أقطار عربية، قديماً وحديثاً. هناك من رأى أن الميت بالطاعون شهيد كبقية الشهداء الذين ورد ذكرهم في القرآن، وأن الصابر عليه إنسان يشبه المرابط في سبيل الباري، كما ورد في الحديث النبوي الشريف. في حين عدّه فقهاء آخرون بمثابة عقاب من الخالق لعباده الضالين الذين أهملوا الرسالة، كما يحصل في السنين الأخيرة بخصوص قراءة الأمراض والزلازل والفيضانات والأعاصير، بحيث يتعذر القبض على الرأي إلا بالعودة إلى المرجعيات الدينية أو الخرافية أو الأنثروبولوجيا، أو العلمية في أغلب الأحيان، خاصة في بعض الطرح الغربي الذي عادة ما لا يبيّن في التفسير والتأويل على المسائل الغيبية، مع ذلك فهناك من يربط الأوبئة بانتقام الرب (الطوفان في التوراة، وفي المصحف الشريف)، وبخاصة من كان مؤمناً بالكتاب.

من المعروف، من الناحية التاريخية، أنه تمّ إلغاء مناسك الحجّ سنة 1814 بسبب الطاعون الذي ضرب المنطقة، كما شهدت الفترة الممتدة ما بين 1837، 1892 وفاة آلاف الحجاج بسبب المرض ذاته. يضاف إلى ذلك ظهور وباء الكوليرا في عدة سنوات متقاربة أحياناً، ومتباعدة أحياناً أخرى. لقد شهدت فترة 1817، 1824 مأساة حقيقية بظهور الكوليرا الآسيوية الشهيرة، كما سميت آنذاك بالعودة إلى مصدرها، وقد انطلقت من الهند لتمتد إلى عدة مناطق في العالم، بدءاً بجنوب آسيا، مروراً بالشرق الأوسط، وصولاً إلى شرق أفريقيا وساحل البحر الأبيض المتوسط، لتصل إلى الصين عام 1831، وفي 1816 ظهرت الأنفلونزا الإسبانية التي أدت إلى وفاة الآلاف.

عاد وباء الكوليرا للظهور مرة أخرى في سنة 1863، ويعتقد، حسب بعض المراجع، أنه تسبب في مقتل عشرة آلاف ضحية عندما مسّ الحجاز وبعض مناطق الشرق الأوسط، لينتقل بعد ذلك، إلى عدة جهات: روسيا وأوروبا وأفريقيا، ومع الوقت غدت أوروبا وروسيا وشمال أمريكا مركزاً له، مع أنه انطلق من كالكونا الهندية، وفي كلّ مرة كان الداء موضع جدال ما بين رجال الدين والعلماء الذين فسروه وفق رؤاهم العلمية والدينية، ووفق استثمارات سياسية أو أيديولوجية في بعض الحالات، لكن المقاربات ظلت متباعدة أحياناً، متقاربة، ومتضادة أيضاً بسبب القناعات والمعتقدات التي تعاملت مع الوباء.

الأوبئة والأدب: من الناحية الأدبية فقد استغلت هذه الأوبئة المتجذرة في التاريخ بدرجات مختلفة، سواء في الشعر أو في النثر أو في الإعلام، وكان الشاعر والفقير والنحوي ابن الوردي (1292 - 1349)، صاحب كتاب "تنمة المختصر في أخبار البشر"، أحد هؤلاء الذين كتبوا عن الطاعون الذي ضرب الشام ومصر النعمان حيث ولد، وبعد يومين من كتابة قصيدته توفي بالداء نفسه. لذا قيل إنه قام برثاء نفسه قبل الوقت، أو أنه كان يحسّ بدنوّ أجله فترك مراثيته. كما كتبت الشاعرة العراقية نازك الملائكة (1923 - 2007) نصها الشهير الذي يحمل عنوان: الكوليرا، وهي تتناول موضوع انتشارها في المشرق العربي، وفي مصر، ومما ورد فيها هذه المقاطع: "سكن الليل/ أصغ إلى وقع صدى الأثّات/ في عمق الظلمة، تحت الصمت، على الأموات/ صرخات تعلو، تضطرب/ حزن يتدفق، يلتهب/ يتعثر فيه صدى الآهات..."

إلى جانب ذلك الرواية الشهيرة لألبير كامو (1947) التي تجري أحداثها المأسوية في مدينة وهران الجزائرية، و تحمل العنوان نفسه. "الطاعون" لألبير كامو حاصلة على جائزة نوبل، وقد طبعت بآلاف النسخ (تجاوزت 160 ألف نسخة)، قبل أن تشهد عشرات الترجمات وتطبع بملايين النسخ في كل أرجاء العالم بالنظر إلى قيمتها الكبرى في وصف العلة من منظور عميق. الرواية فلسفية، وعشية، وقد عرف هذا العمل رواجاً كبيراً في إيطاليا بعد انتشار وباء كورونا، بحسب ما تداولته الصحف ومنصات التواصل، وهي تعالج فكرة القدر ومسألة الوضع البشري الهشّ بطريقة راقية اشتهر بها كاتب رواية الغريب. وقبل كامو كتب عنه عميد الأدب العربي طه حسين (1889-1973) في سيرته الذاتية التي تحمل عنوان الأيام (1929)، وذلك بعد وفاة شقيقه بسبب وباء الطاعون الذي عصفت بالبلد.

كما نصادف في سجلات الأدب المعاصر عدة أعمال أدبية ناجحة ركزت على هذه الأوبئة بدرجات فنية ورؤيوية متفاوتة، ناقلة أو متأملة ومستشرفة الأحداث، كما لو أنها عايشتها أحياناً. نشير مثلاً إلى الكاتب والطبيب السوداني أمير تاج السر (1960) في رواية "إيولا 76" التي نشرت سنة 1912، وهي تعالج علاقة عاطفية في ظل انتشار الوباء، غير أن الحكاية التي بنت عليها، وفعل الخيانة كتيمة مهمة، هيمنوا على النص، ولم

يتركها مجالا كبيرا لليلة لتظهر بشكل جليّ، إلا في ما يشبه الخلفية البارزة. الأحداث تجري في أجواء تراجيدية وسمت النص الذي كتب بمهارة، وبتوثيق جليّ لما حصل، أو سيحصل.

وهناك الكاتب الكولومبي غابريال غارسيا ماركيز (1927 - 2014)، صاحب جائزة نوبل، ورواية مائة عام من العزلة في رائعته "الحب في زمن الكوليرا" (1985) التي عرفت صدى كبيرا ومتابعة استثنائية. الرواية مدهشة حقاً، وهي عبارة عن قصة عاطفية غريبة تجري أحداثها في منطقة الكاريبي، ومع تقدم سنّ الشخصيتين الأساسيتين، تتقوى العلاقة لتغدو خيالية، ومثالية إلى حد بعيد، إلى أن ترفع راية الوباء في الخاتمة كتدليل على الأزمة الحادة التي ستظهر بجلاء لتقوّض كثيراً من الأوهام البشرية.

أمّا أحمد خالد توفيق، الكاتب والمترجم والطبيب والإعلامي المصري (1962 - 2018) فتكهن في أحد نصوصه بظهور المرض في الصين الشعبية، وكان يشير، بنوع من الدقة المتناهية، إلى الفيروسات القاتلة في بلد غريب استطاع أن يجمع ما بين الخنزير والدجاجة في مساحة واحدة، وبشكل لافت، إذ كتب بكثير من اليقين المتقدم عن الأحداث اللاحقة، وببصيرة الرائي المتقد البصيرة: "كلّ فلاح صيني يخفي في حظيرته محتبوا خطيراً للتجارب البيولوجية، وفي هذه الحظيرة تنشأ أنواع فيروسات فريدة لم نسمع عنها من قبل"، وهو تنبؤ أصبح معروفاً لدى القراء، ومتداولاً بكثرة في أوساط النخب التي لم تنتبه جيداً إلى الظاهرة.

وقد نجد في الأدب العالمي روايات وقصصاً خيالية، أو روايات رعب مثيرة تطرقت إلى تفاصيل شبيهة بما نعر عليه في النصوص الكلاسيكية التي تحدثت عن المستقبل قبل الوقت، كرواية 1984 للكاتب الإنجليزي جورج أورويل، أو رواية مزرعة الحيوان للكاتب نفسه، أو رواية "الأم" لمكسيم غوركي. ثمة، في هذه النصوص أعمال استبقت الأحداث، كرواية "نهاية العالم" للكاتب ستيفن كينغ (1947) التي يتحدث فيها عن ظهور أنفلونزا جديدة ستنتشر بقوة، أنفلونزا معدّلة في مخابر عسكرية أمريكية تشتغل سرّاً، وسيغدو هذا الفيروس لاحقاً سلاحاً بيولوجياً مدمراً يخلف آلاف الضحايا حيثما حلّ، وسيكون الناس عاجزين عن السيطرة عليه لسرعة انتشاره وغرابته. الرواية هذه تطرح، قبل الوقت، مشكلة وجودية انطلاقاً من مظهرات الواقع السياسي والاجتماعي، ورغم أنّها خيالية، إلا أنّها تتقاطع، في جزء كبير منها، مع المحتمل، أو مع ما يمكن أن تقوم به الأنظمة تكريساً لمنظوراتها المنافية للأخلاق والقيم.

هذا النص العارف ذكر جزئيات تكاد تكون واقعية، لمن يعتقد بأن الأمراض قد تصنع في مخابر متخصصة لأغراض اقتصادية أو مالية، أو بهدف تغيير خريطة العالم وفق مشيئة القوى الكبرى التي عادة ما تراهن على المال والقوة لتثبيت ذاتها. سيقدم لنا كتاب: "لماذا يكذب القادة" لجون جي ميرشايمر، صورة دقيقة عمّا يحدث في الخفاء، وما بين القادة، بعيداً عن مدارك الأمم الخاضعة، أو تلك التي تنق بخطاب المسؤولين. كتاب نهاية العالم منزعج غريب في الكتابة عن الأوبئة الممكنة. لذا نصحت جريدة "الأنديبندنت" البريطانية من يؤمنون

بنهاية العالم قريبا بالاطلاع عليه نظرا لقيمته الكبرى في الطرح، وفي التعامل مع الواقع والممكن، مشيرة، في آن واحد، إلى أنّ الرئيس الأمريكي الحالي دونالد ترامب قد يكون، بحسب التجليات، أحد الأطراف المشاركة في قيام حرب نووية أو فيروسية تأتي على ما أنجزته الحضارة عبر السنين، ومن ثمّ إمكانية قضائه على الحياة برمتها.

نشير، في هذا المقام إلى اهتمامات الكاتب البرتغالي خوزي ساراماغو (1922 - 2010). لقد كتب رواية "العمى" سنة 1995، مركزا على مرض غريب يصيب البشر فجأة، دون أن يعرفوا سببه أو مصدره. اسم هذا الداء، بحسب الرواية، العمى الأبيض. سيسعى المسؤولون بسببه إلى فرض الحجر الصحي على الساكنة في مشفى معزول عن المدينة، ومع تزايد المصابين تتفكك القيم والروابط الاجتماعية قاطبة، ويتعرى المجتمع ليكشف عن حقيقته الخفية التي طالما بقيت مجهولة. مع ذلك سيظل بعض الأفراد الملتزمين يعملون على تحقيق المصلحة العامة كقيمة إنسانية خالدة، بعيدا عن القطيع الذي يتسبب في فوضى يتعذر التحكم فيها. الرواية رمزية في جوهرها، لكنها تستمد حقيقتها من الفرضيات، من هذه النظرة الثاقبة للمجتمعات في تشكلاتها، من حقيقتها المضمرة التي لا يكشف عنها القول والظاهر كسمتين غالبتين على السلوك البشري. تقول زوجة الطبيب في خاتمة الرواية، معلقة على هذا الكائن الغامض الذي يسمى الإنسان: "لا أظن أننا أصبنا بالعمى، بل أظن أننا عميان بإمكانهم أن يروا، غير أنهم لا يرغبون في ذلك."

وهناك، إلى جانب هالة العمى، رواية الكاتب الأمريكي دين كونتز (1945) الموسومة: "عيون الظلام"، وهي رواية عارفة صدرت عام 1981. أمّا ما يميزها عن غيرها فهو التفصيل الدقيق في الأحداث التي تتطابق أحيانا مع علامات كورونا المستحدثة. لقد تطرق الكاتب، ببعض الغرابة، إلى ظهور فيروس غريب في مدينة ووهان الصينية، لينتشر بعد ذلك بشكل يتعذر السيطرة عليه طبيا لغموضه وسطوته وقوته الفتاكة، وبصرف النظر عن الجانب الرمزي للكتاب، فإنه يتنبأ بالوباء، ببعض المتغيرات التي تدخل في باب الخيال، مع أنها تبدو من صميم الواقع. أمّا كيف ركز على مدينة ووهان فتلك مسألة قد تكون ذات علاقة بمعانياته، أو بقراءاته المركبة وتجربته التي استطاعت تحديد مكان الوباء بدقة متناهية، كما لو أنه كان يعيش في المستقبل والحاضر معا. هناك معرفة كبيرة، وعبقورية أيضا، ما جعلت الكاتب يتنبأ بتفاصيل يصعب الوصول إليها بكتابة ظرفية، وتبسيطية.

قبل ذلك بكثير كتب القاص والشاعر والناقد الأمريكي إدغار ألان بو (1809 - 1849)، رائد القصة القصيرة في العالم، قصة بعنوان "قناع الموت الأحمر" (1842)، وقد تحدث فيها عن هذا الوباء الغريب الذي أصاب البلدة كلها، ما يضطر الأمير إلى الاحتماء بالدير للنجاة من الموت، لكنّ شخصية متنكرة ستزور المكان والغرف تباعا (الموت الأحمر)، وهكذا يصاب الأمير والضيوف ويموتون. القصة فلسفية، كما يبدو، وهي تتطرق إلى القدر، وإلى المصير المؤكد للجميع. وقبل إدغار ألان بو بكثير ألف الإيطالي جيوفاني بوكاتشيو كتاب: "ديكاميون"، وهو تحفة ذائعة الصيت، وموضوع عدة دراسات غربية. كما يمكن الإشارة، في هذا السياق، إلى رواية "مجلة الطاعون" للكاتب الإنجليزي دانيال دينو (1660 - 1736)، أحد مؤسسي الرواية الإنجليزية،

وصاحب تحفة: روبنسون كروزو" الشهيرة، ومقولة: " جيش من الخرفان يقوده أسد، أفضل من جيش من الأسود يقودها خروف". المؤلف يتناول فيه هذا الوباء بإحاطة لافتة، رغم أنه كتب قبل أزيد من ثلاثة قرون.

وتتفق بعض الأعمال، أو أغلبها، على ثنائية الخير والشر التي تتحكم في العنصر البشري منذ القدم. أما الأعراب في ذلك فإنّ جلّ النصوص جعلت الحبّ مركزا للمرويات، كما فعل ماركيز، مع ما يميزها من تناول قضايا إنسانية خالدة، وأغلبها يتعلق بسقوط القيم، ظهور النزعة الفردانية، التضحية العبثية، ضياع المجتمعات، تراجع الخير، وهيمنة القوى البورجوازية الشريرة على مجتمعات اتسمت بالنزعة البدائية، وبالرغبة في التنازل عن القيم السامية لفائدة فئاعات جديدة لا تخدم الإنسان. هل هذا يعني أنّ ثمة روايات، رغم طابعها الخيالي المحض، استبقت وقتنا للحديث عن أوبئة قادمة، وذلك بقراءة صيرورة الواقع قراءة متأنية، وعارفة بطبيعة حركة التاريخ وتفصيلها؟ ربّما كانت هذه النصوص قريبة جدا من السياسة والمجتمعات، وعارفة بنزوع مراكز القرار التي تخطط لأهم التحولات التي يشهدها التاريخ، ولذلك أفلحت في إدراك الحقائق والأحداث المحتملة قبل حصولها بأعوام.

هذه النصوص العارفة لا تؤسس على السفاسف العابرة بقدر ما تهتمّ بالجواهر التي قد تتواتر مرارا، بالنويات الثابتة إن نحن استعرنا مصطلح الشكلايين الروس، مستثمرة في المسائل الاقتصادية والفكرية والفلسفية الضاغطة، في جينات الحدث، وذلك لتقديم صورة دقيقة عن المضمرات، عن الكامن في الأعماق القصية، وهي تفصح، بنوع من اليقين المبني على رؤية متقدمة، الحقيقة البشرية كما هي، بصرف النظر عن التجليات اللفظية، وعن العلامات المضللة التي تسم الخطاب المسوّق من القادة والمسؤولين عبر الوقت، ومن المثقفين المترهلين الذين يقيمون في الأوراق والحواشيب، أو يبنون على الكسل العقلي، دون يتوغلوا في مكونات الفعل، في مصادره ومآلاته الممكنة.

ستأتي أوبئة أخرى لا محالة، طبيعية أو مصنعة في المخابر المتخصصة في إنتاج الحرب والجوع والخراب والموت، ومن وظائف الأدب والفن والإنسان أن يشنّ عليها حربا استباقية لإنقاذ القيم السامية التي تحافظ على كرامة الجنس البشري، وذلك أنفع من الأدب الإباحي الذي تقف وراءه مؤسسات فظة لا تعنيها سوى الأموال والكتابات السطحية. الأدب ليس ترويجا عن النفس، أو ناطقا رسميا باسم جهة ما، وليس ذبلا لأية جماعة ضاغطة ترغب في تكريس العبث واللاجدوى. إنه أرقى من هذه التصورات التبعية، وأكثر رقيا من هذه الضحالة التي يعيشها، مكثفيا بالتشريفات والأموال والجوائز¹⁰.

¹⁰ د سعيد بوطاجين

وبعد اكتشاف مصل وتطعيم للفيروس المستجد منذ مطلع العام الجديد 2012 فهل يجد المصل من انتشار الوباء؟ أم أن هناك موجة ثالثة قادمة خاصة مع الشائعات التي تهاوت مع الآثار الجانبية للقاح والتي ستكون مادة خصبة للأدباء.

خاتمة:

من العرض السابق نخرج بالنتائج التالية :

- إن جائحة كورونا باغتن العالم بأسره وتسببت في إحداث ربكة غير مسبقة ، فالجوائح على مدار التاريخ كانت تصيب أماكن بعينها دون أخرى إن اتبعوا الوسائل الاحترازية لكن وباء كورونا جمع العالم بأسره .
- تنوعت آراء الكتاب والشعراء والنقاد حول أثر الجائحة على الإنتاج الأدبي في ظل الجائحة.
- استطاعت شبكات التواصل الاجتماعي توفير تطبيقات مثل (zoom) لعقد الندوات واللقاءات الثقافية حتى لا ينضب معين الفكر والعطاء في ظل العزلة التي فرضتها الجائحة
- تميز الإنتاج الأدبي في ظل الجائحة بالقلق النفسي وهذا سرى في بنية النصوص السردية من خلال اللغة.
- الأدب على مر العصور كان وسيلة لاستشراف المستقبل كما عرض د.أحمد خالد توفيق وغيره في أعمالهم الإبداعية التي أشرنا إليها سلفاً
- الجائحة كانت من الركائز الرئيسة في مراجعة الإنسان لذاته ، كما ساهمت في فتح الأفق للكاتب للاطلاع والقراءة .
- ساهمت الأزمة في عقد مؤتمرات افتراضية بعدة أبحاث تثري المكتبة العربية ومن ثم تؤرخ للجائحة بطريقة غير مباشرة ومن ثم ينضب معين البحث العلمي .
- لم يكن الأدب رفاهية بل رسالة وأمانة لذلك فهذه الجائحة فرصة حقيقية لتراجع الأقلام المأجورة أعمالها وتنضم لقافلة الأدب الحقيقي الذي يسمو بالملتقي .
- ربما نجد جنساً أدبياً جديداً يهتم النقد بدراسته ألا وهو "أدب العزلة " وسوف ينتج دراسات بينية متعددة فسوف يتداخل المنهج التاريخي وعلم النفس وعلم الاجتماع .. إلخ في دراسة هذا الجنس الأدبي الذي سيفرض نفسه على الساحة الأدبية وستنشط أقلام الأدب الواقعي على يد الأدباء الذين عاصروا الجائحة.